الجمهور الاسرائيلي، الذي ينساق، في تلك الظروف الخاصة، وراء قيادته بلا تردد، أو مساءلة. وهي صفة تلازم المجتمعات الاستيطانية بصورة عامة.

صورة جامدة للعدو

تحتل صورة العدو حيّزاً واسعاً بين مكوّنات الثقافة السياسية الاسرائيلية. فعندما يكون الصراع هو محور الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وعندما يتم تضخيم هذا الصراع، وتصويره على انه صراع وجودي دائم، فان الثقافة السياسية، بل الثقافة على العموم، ترتكز على استقراء خصائص هذا العدو، واستنباط أشكال ادارة الصراع ضده، وتصور العلاقة المستقبلية معه، استناداً الى خصائص وطبيعة الصراع المحتدم في مواجهته.

وتتسع قائمة أعداء اسرائيل لتضمّ، الى جانب العرب، دولاً عظمى، مثل الاتحاد السوفياتي، ومجموعات دولية كبرى، مثل الدول الاسلامية. وليس شرطاً ان يكون جميع الأعداء، في التجربة الاسرائيلية، في حالة حرب فعلية مع اسرائيل، بل هم، كما تصورهم الأدبيات السياسية الاسرائيلية، أعداء محتملون. وتنبع اعتبارات اسرائيل في تحديد قائمة أعدائها من اعتبارات عقائدية، ومن اعتبارات الدور الوظيفي لاسرائيل كحامية لمصالح الغرب الرأسمالي، في مواجهة شعوب الشرق الأوسط. أمّا الأعداء الفعليون، فهم العرب، بصورة عامة، والفلسطينيون، على وجه الخصوص.

وعلى الرغم من التفاوتات الطفيفة في تصنيف الأعداء العرب، بحيث يتمّ تقديم دولة، وتأخير أخرى، وفق مستوى انخراطها في الصراع، أو بعدها الجغرافي من ميدانه، الّا ان العرب، على العموم، ينظر اليهم، من المنظار الاسرائيلي، باعتبارهم كتلة واحدة، تتقاسم عناصرها جملة من الصفات المشتركة، ممّا يجعلهم عدواً «نموذجياً» لاسرائيل.

ان صفات العربي، كنقيض في صراع وجودي، تستمد، بمجموعها، من صورة الصراع، كما هي مجسّدة، في العقل الاسرائيلي، وهي صفات ثابتة ثبات الصراع ذاته. غير ان نظرة سريعة الى مكوّنات الفكرة الصهيونية تضع المرء قبالة عدد لا يحصى من الشواهد على ان معظم صفات العربي ـ كعدو نموذجي ـ سابقة للصراع ذاته. فمنذ البداية، أقدمت الحركة الصهيونية على محاولة تغييب الفلسطيني، وجودياً، من صورة الصراع («أرض بلا شعب»)، مع وصم المحيط العربي بصفة أساسية هي البدائية، باعتبارها ينبوعاً لمجموع الصفات التي ألصقت بالعربي فيما بعد. ومع نشوب الصراع، بأشكاله المتباينة، على أرض فلسطين، أصبحت البدائية صفة لكل العرب، بمن فيهم الفلسطينيون.

واذا كان التخلّف صفة نسبية (أقل، أو أكثر، تخلفاً)، فان البدائية ـ وخاصة في الثقافة السياسية الاسرائيلية ـ هي صفة مطلقة، وتنطوي على دلالات الهمجية، كنقيض للحضارة ومجموعة المثاليات التي توجه السلوك الانساني، الفردي والجماعي. وهذه الصورة هي أشبه ما تكون بالصورة التي رسمها العقل الاستعماري الغربي، في القرون الماضية، لشعوب افريقيا وآسيا وأميركا، حيث كان وصف شعب من الشعوب بالبدائية يعني تجريده من كل الصفات الانسانية، ويشكل مبرّراً أخلاقياً مقبولاً لاستعماره، واستغلاله، وربما لابادته. وأجرى الكاتب الاسرائيلي، اولك نيتسر، مقارنة بين مفهوم العدو في الثقافة السياسية الغربية، وبين مثيله في الثقافة السياسية الاسرائيلية، من خلال رصد سلوك المستوطنين اليهود تجاه الفلسطينيين في المناطق المحتلة، عقب اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، فكتب: «وبناء على المفهوم الآخر [الاسرائيلي] الاستبدادي، فان العدو ليس آدمياً،